صلة الاعتزال وارتباطه بالإمام علي (عليه السلام) وليس بأيّ خليفةٍ آخر.

وفي السياق نفسه، بذل جهداً كبيراً في إبراز أسماء المعتزلة الذين خرجوا مع الزيدية في نهضاتهم، وفي مقابل ذلك لم يألوا جهداً في ذكر وتعداد أسماء العلويين ممن كانوا على مذهب الاعتزال.

ومن جهة ثانية أشار الى الترابط بين التشيّع الادريسي في شمال افريقيا وبين المعتزلة، مُذكراً بمساهمة المعتزلة بأحداث تلك المنطقة.

وبكلام مُختصر نستطيع التأكيد على أنّ البلخي شرّع بمنهجٍ جديد أسبغ فيه اللون الشيعي على حركة الاعتزال، وهو المنهج الذي كانَ من القوة بحيث ترك بصمات قوية على الكتّاب المعتزلة من بعده في تناولهم لشرح طبقات المعتزلة.

فالبنية المنهجية لبحثه كانت حاضرة تماماً في كتاب «فضل الاعتزال» للقاضي عبدالجبار، ومن بعده في كتابي «شرح عيون المسائل» و«المنية والأمل».

الصاحبُ بن عباد نقطة تلاقي الاعتزال بالتشيّع

يُعدّ الصاحب بن عباد واحد من أفضل الوزراء الايرانيين الذي تألق اسمهُ الى جوار عددٍ من الوزراء المشهورين. فهو شخصية تتحلى بمُواصفات سياسية وأدبية وثقافية ممتازة. وُلدَ سنة ٣٢٦هـ وتوفي في عام ٣٨٥هـ.

إنّ الذي يعنينا من حياته العلمية والثقافية هو أنّهُ أضحى، بالمعنى الدقيق للكلمة رمزاً لاتحاد الاعتزال بالتشيّع، فاعتزاله لم تَشبه شائبة انحراف من قبيل العثمانية، بل تبلور التشيّع في تكوينه كاملاً، فهو في شعر لهُ يقول:

لو شُقَّ عن قلبي يُرىٰ وَسطه

سطران قد خُطّا بلا كاتبِ

العدلُ والتوحيدُ في جانبٍ

وَحبُّ أهل البيت في جانبِ[١]

وَفي مكانٍ آخر يقول:

العدلُ والتوحيد كلّ معاقلي ووِلاءُ آلِ الطهرِ جُلُّ حصوني[٢]

وَمِن شعره أيضاً:

العدل والتوحيد مذهبي الذي يُزهىٰ به الإيمان والإسلامُ

وَوِلايتي لمحمّدٍ ولآلِهِ ديني وَحصنُ الدين ليس يُرامُ[٣]

وَلَهُ كذلك:

قالت: فما اخترت مِن دينٍ تفوز به

فقلت: إنّي شيعيٌّ وَمعتزلي[٤]

ثمّة شواهد تؤكّد انحياز الصاحب الىٰ المعتزلة، بل وَميله حتىٰ لاؤلئك الذين يفتقدون اللون الشيعي القوي. أمّا بالنسبة لتشيعه فثمة آراء مُتضاربة، حيث ذهب البعض الىٰ أنّهُ شيعيّ زيديّ المذهب، حنفي الفقه[٥]. فيما أكدَّ البعض الآخر علىٰ تشيعه كلياً دون أي شيء آخر[٦].

وَفي جوار ذلك ثمة شواهد أُخرىٰ تؤكد علاقته الوطيدة بالائمة المعصومين (عليهم السلام) أهمّها أشعاره المثبتة في مقدمة كتاب «عيون أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ» وَكذلك ما وردَ عن الشيخ الصدوق عنه، حيث ذكر الشيخ، أنَّ الصاحب مُتمسك بولاية الأئمة وَهو يرىٰ أنَّ طاعتهم واجبة[٧].

---

١. ديوان الصاحب بن عباد، ص ١٨٤.

٢. المصدر السابق، ص ١٢٩.

٣. ديوان الصاحب بن عباد، ص ٢٧٣.

٤. المصدر السابق، ص ٣٩، وَكذلك: رسالة إبليس الىٰ اخوانه المناحيس، ص ١٢٠.

٥. معجم الأُدباء، ج ٦، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

٦. شذرات الذهب، ج ٣، ص ١١٥.

٧. عيون أخبار الرضا (ع)، ج ١، ص ٢، وانظر كذلك: روضات الجنات، ج ٢، ص ٢٥.

إنَّ مجموع هذه الشواهد دفع ببعض علماء الشيعة للتأكيد على أنَّ الصاحب إمامي المذهب[١]. وفي الواقع ليس ثمة مشكلة في ذلك إذا كانَ مقصود هؤلاء الأعلام أواخر حياة الصاحب، أمّا في المقاطع الأخرى من حياته فإنَّ بين أيدينا ما يكفي من الشواهد التي تكشف عن عُلقته بمشايخ المعتزلة، من ذلك أنَّهُ يذكر في رسالة «في الهداية والضلالة» كلاً من: جعفر بن حرب، أبو جعفر الاسكافي، أبو علي الجبائي، أبو القاسم البلخي والجاحظ، على أنهم من «مشايخنا»[٢].

من جهة أُخرى قادَ نفوذه السياسي في الري واصفهان الى اجتذاب الكثير من علماء الشيعة والمعتزلة إليه[٣]. أمّا البغدادي فقد ذكر أنَّ جُلَّ المعتزلة في عهده أصبحوا على مذهب أبي هاشم الجبائي تأثراً بدعوة ابن عباد وتماشياً مع ما يعتقد[٤].

أمّا وزارته فقد كانت باعثاً لِتَقَلُّد جمعٌ من المعتزلة لمناصب ادارية وقضائية مهمة، حيث تعمد ابن عباد أن يستبعد من حوله مَن يقول بالجبر والتشبيه، ويُقرّب في المقابل مَن يعتقد بالعدل والتوحيد[٥].

إنَّ تضارب الشواهد التأريخية وتنوعها قادَ الى تضارب الأقوال في مذهب ابن عباد وفيما إذا كانَ شيعياً إمامياً أم لا.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فمن جهة ذكر الصاحب أئمة الشيعة في أشعاره[٦]، بل ينقل عنهُ ابن شهر آشوب أشعاراً يذكر فيها أسماء الأئمة الاثنا عشر ويمتدحهم[٧]. بيدَ أنَّ غالبية أشعاره تقتصر على ذكر فضائل علي والحسنان (عليهم السلام) والتغني بهم دون أن يكون ثمة ذكر للائمة من بعدهم. وفي نفس الوقت

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص٤٢، رياض العلماء، ج١، ص٨٤، الصاحب بن عباد (آل ياسين) ص٧١ ـ ٨٤، هداية العباد در شرح حال صاحب بن عباد، ص٩٩، تاريخ تشيع در ايران، ص٢٥٩ ـ ٢٦٢.

٢. رسالة في الهداية والضلالة، ص٤٨.

٣. معجم الأُدباء، ج٦، ص٢٥٥.

٤. الفرق بين الفِرَق، ص١٨٤ ـ ١٨٥.

٥. المعتزلة، ص٢١٠ ـ ٢١٢، أدب المعتزلة، ص١٥١ ـ ١٥٣.

٦. انظر: ديوان شعره، ص٩١ ـ ١٥٩ حول الإمام الرضا(ع).

٧. المناقب، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٠؛ الديوان، ص٢٠٤ ـ ٢٠٧.

فإنّ شعره يخلو من الإشارة الى أئمة الزيدية.

ومن جهة ثانية بين أيدينا نقد الشيخ المفيد لعقيدة الصاحب في الإمامة حيث كتب «النقض على ابن عبّاد في الإمامة»[١]. وكذلك ثمة ردّ للسيد المرتضى بعنوان «الإنصاف في الردّ على ابن عباد»[٢]. بيدَ أنّ صاحب «النقض» ذهب في مقابل ذلك «الى أنّ تشيعه كان بشكلٍ بحيث صنّف كتاباً في إمامة الأئمة الاثني عشر»[٣]. (إنفردَ المصدر في ذكر الكتاب، ولم أعثر عليه ـ في حدود اطلاعي في مصادر أُخرى) وقد نقل ابن حجر، أنّ الشيخ المفيد شَهِدَ انّ الكتاب الذي نُسبَ الى الصاحب في الاعتزال «وضع على لسانه ونسب إليه وليسَ هو له»[٤]. أمّا القاضي عبدالجبّار فقد قال حين تقدم للصلاة عليه: «لا أدري كيف أُصلّي على هذاالرافضي»[٥] في حين ذهب ابن أبي طي الى أنّ الصاحب «إمامي الرأي»[٦].

لقد اختار كلّ باحث ما يميل إليه من مجموع هذهِ الشواهد واستند إليه في نسبة ابن عباد الى الشيعة الإمامية أو في نفي هذهِ النسبة. بيدَ أنّ علينا أن نعرف بشكل عام أنّ عصر الصاحب والبيئة التي عاش فيها كانت خاضعة لتأثير الفكرَيْن المعتزلي والشيعي.

فرجال المعتزلة أظهروا في هذا العهد ميولاً واضحة نحو التشيع. أمّا كتب الرجال فقد اختلفت في التقييم تبعاً لاختلافها في الانتماء المذهبي، حيث صنّفت بعض هؤلاء على الشيعة والبعض الآخر على السنة.

وفي كلّ الأحوال، نستطيع أن نرجع هذهِ الخلافات ـ في وجهٍ من وجوهها ـ الى القرابة الوثيقة التي ربطت بين الشيعة والمعتزلة. بيدَ أنّ ثمة تيار آخر، سنشير إليه لاحقاً، بين الطرفين، كان يتمثل بمعتزلة مُنفصلين عن التشيّع أو شيعة كرهوا أن يوصموا بالاعتزال.

---

١. فهرست الطوسي، ص١٨٧.

٢. اليقين، ابن طاووس، ص١٧٤.

٣. النقض، ص٢١٧.

٤. لسان الميزان، ج١، ص٤١٦.

٥. المصدر السابق، نفس الصفحة.

٦. لسان الميزان، ج١، ص٤١٦.

إنَّ الباعث الى تبلور الفئتين الأخيرتين هو خشيتهما، وعلى حدٍّ سواء، من ذوبان أحد المذهبين بالآخر. بيدَ أنَّ الذي حصلَ فعلاً هو اضمحلال الاعتزال وانحلاله في التشيّع، حيث فشلت جهود شيوخ الاعتزال ومقاومتهم للحيلولة دون هذا التيار الجارف.

وفي هذا السياق ذهب الدكتور صبحي الى أنَّ صلة التشيع بالاعتزال في البصرة مرّت بمرحلتين، اكتسب الاعتزال في الأولى الميول الشيعية، بينما اضمحلَّ في التشيع في المرحلة الثانية. وُفق وُجهة النظر هذه يذهب الباحث صبحي الى أنَّ القاضي عبدالجبّار مثّل الحلقة النقية الأخيرة في الاعتزال[١].

لقد انتقد الكثيرون القاضي عبدالجبار لمقاومته للصاحب بن عباد، وكذلك لرفضه الصلاة على جثمانه بعد وفاته، رغم أنَّ القاضي استفاد من ابن عباد كثيراً.

ومن البيانات التأريخية الأخرى التي أشارت الى قرابة الشيعة والمعتزلة في القرن الرابع، هو ما ذكرَهُ المقدسي الذي ذكر «أنَّ شيعة عمان، صعده، سروات وسواحل البحرين كلّهم معتزلة»[٢].

أمّا عن البصرة فقال: «أكثر أهل البصرة القدرية والشيعة»[٣].

أمّا الذهبي فقد ذكر أنَّ سنة ٣٧٠ هـ هي سنة تآخي الرفض والاعتزال[٤].

لقد ذهبَ الدكتور جارالله استناداً الى هذه الشواهد، الى أنَّ المعتزلة لم يكن بمقدورهم الظهور إلّا في المناطق التي كانَ يتمتع الشيعة فيها بالقوة والقدرة[٥].

إنَّ هذه الظاهرة تؤكّد حقيقة أساسية قُوامها أنَّ المعتزلة لم يملكوا أهلية البقاء اعتماداً على أنفسهم، لذلك بدأ ذوبانهم بالتشيع وانحلالهم فيه مُنذ القرن الرابع الهجري. هذه العملية التي انتهت فيما بعد الى هضم التشيع للاعتزال كاملاً وحذف الاعتزال الخالص من الوجود؛ حتى كتب المقريزي

---

١. في علم الكلام، ج ١، ص ٣٤٦.
٢. أحسن التقاسيم، ص ٩٦.
٣. أحسن التقاسيم، ص ١٢٦.
٤. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٤٩.
٥. المعتزلة، ص ٢٠٧.

بعد ذلك مؤكداً إنّك لا تكاد تجد معتزلياً غير رافضي[١].

لقد كان لضغوطات أهل الحديث والحنابلة في أواخر القرن الرابع، وَمُواجهتهم المشتركة للمعتزلة والشيعة أثرها في تقريب المسافة بين الاثنين. فالخليفة العباسي القادر بالله الذي حمل صفة المدافع عن السنة ضدّ البدع إنّما كانت معركته مشتركة ضدّ المعتزلة والرافضة معاً[٢].

لقد كانَ مؤكداً أن تفضي هَذهِ الضغوطات والمضايقات الىٰ خلق تصوّر لدىٰ المخالفين يجعل المعتزلي شيعياً والشيعي معتزلياً.

علىٰ هَذا الأساس ذهب صاحب رياض العلماء الىٰ أن سبب نسبة الاعتزال الىٰ الصاحب بن عباد تعود الىٰ الأشاعرة الذين لم يفرقوا في الأُصول بين الشيعة والمعتزلة، بل كانوا يعدون كلّ شيعي معتزلياً[٣]. بيدَ أنَّ عكس هَذا التصوّر أزاء الصاحب بن عباد موجود أيضاً.

لقد تحدّث البغدادي في «الفرق بين الفرق» عن ميول الشيعة نحو الاعتزال[٤]! بل وَوصفَ الحسن بن محمد النوبختي بأنّهُ «كانَ شيعياً معتزلياً». بيدَ أنَّ صاحب الرياض توقّف عِند هَذهِ النقطة بالذات مشيراً الىٰ انها مثال حسن لخلط الأشاعرة بين الشيعة والمعتزلة[٥].

أمّا صاحب «روضات الجنّات» فقد ردَّ علىٰ الصَفَدي الذي عدَّ الصاحب بن عباد والزمخشري والفرّا مِن المعتزلة، بالتعليق التالي: «وَقد عرفت ممّا ذكره الصفدي، وَما سوفَ تعرفه في تصانيف ما يأتيك أنَّ مذهب أهل الاعتزال أقرب ما يكون مِن مذاهبهم الىٰ الإمامية الحقة، وأنسبها مِنهم سيّما في الأُصول الاعتقادية، وَمِن أجله اشتبه أمر الصاحب بن عباد علىٰ كثير»[٦].

ثمة شواهد كثيرة يطويها القرن الرابع تتحدّث عن أشخاصٍ وُصفوا بأنّهم شيعة وَمعتزلة في

---

١. الخطط المقريزية، ج ٤، ص ١٦٩.

٢. حياة الحيوان، ج ١، ص ٨٧، المعتزلة، ص ٢١٣.

٣. رياض العلماء، ج ١، ص ٨٨.

٤. الفرق بين الفرق، ص ١٦٤.

٥. رياض العلماء، ج ١، ص ٣٤٥. والملاحظ أنَّ الشيعة والمعتزلة يدعيان معاً أنَّ الحسن بن موسىٰ مِنهم. بيدَ أنَّ ابن النديم ينسبه الىٰ التشيع استناداً الىٰ اصله البيتي. الفهرست، ص ٢٢٥.

٦. روضات الجنات، ج ١، ص ١٨٧.

نفس الوقت. مثال ذلك أبو القاسم التنوخي (ت: ٤٤٧هـ) الذي وُصف بأنّهُ شيعياً معتزلياً[١]، فيما ذكرهُ ابن عماد الحنبلي بأنّهُ كانَ يعتقد بالاعتزال والتشيّع[٢]، في حين كانَ للسيد ابن طاووس رأياً آخر إذ وَصفهُ بأنّهُ سنيّاً؛ بل وَ«مِن أعيان رجالهم»[٣]. بيدَ أنَّ كلام السيد ابن طاووس هٰذا صحيح الى دَرجة معينة. والسبب في ذلك يعود الى كتاب صنّفه عن طُرق حديث المنزلة (نقل عنهُ ابن طاووس) انتهى فيه الى أنَّ ثلاثين صحابياً رَوَوْا الحديث.

وَمِن الشواهد الأُخرىٰ ما ذكرهُ الذهبي عن الصاحب بن عباد مِن أنّهُ «أديب بارع شيعي معتزلي»[٤] وَما نَقلهُ أيضاً عن الخطيب حول الحسين بن حسن البُنْدار الأنماطي، مِن أنّهُ «كانَ يدعو الى التشيّع والاعتزال»[٥]. أمّا عن وِشاح الزبيبي، وَهو مِن محدثي القرن الخامس، حيث توفي سنة ٤٦٣هـ، فقد كتب الذهبي «فيه رفض» مستدلاً ـ فيما يبدو ـ بما ينقله عن الزبيبي مُفتخراً: «أنا معتزلي بن معتزلي بن معتزلي»[٦]. وَفي مكان آخر وَصفَ الذهبي عمر بن إبراهيم العلوي (ولد سنة ٤٤٢هـ) بأنّهُ: «الزيدي الكوفي الحنفي الشيعي المعتزلي»[٧]. وَقد مرَّ في مكانٍ سابق أنَّ الذهبي كتب عِندَ ذكر علي بن عيسىٰ الرماني الذي يصفهُ بـ«المعتزلي الرافضي» أنَّ الرفض والاعتزال تآخياً مُنذ سنة ٣٧٠هـ حتىٰ زمانه، وَبتعبير البغدادي نفسه «تصادفا الرفض والاعتزال وَتواخيا»[٨].

لا ريب أنَّ تأكيد الذهبي علىٰ السنة المذكورة إنّما كانَ لحدثٍ هامٍ لفت انتباهه.

لا شك أنَّ القرابة بين التشيع والاعتزال كانت باعثاً لتقوية الاتهام الذي يزعم أنَّ الشيعة أخذت فكرها الكلامي عن المعتزلة. هٰذهِ التهمة التي واجهها الشيخ المفيد بقوة حين أظهر للعيان

---

١. الوافي بالوفيات، ج ٢١، ص ٤٠٢.
٢. شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢٧٦.
٣. الطرائف، ص ٥٣ ـ ٥٤.
٤. ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٢١٢.
٥. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣٢.
٦. ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٥٨.
٧. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٨١.
٨. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٤٩.

جزئيات الاختلافات الكلامية بين الطرفين، وأفلحَ في ازالتها أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري.

وَكانَ ممّا ترتّب على القرابة المذكورة أيضاً أن نُسبَ الاعتزال الى بعض الشخصيات الشيعية المهمة التي لم يكن لها أدنى صلة بالاعتزال الخالص. فمن ذلك ـ مثلاً ـ أنَّ مؤلفاً ينسب السيد المرتضى الى الاعتزال[١]!

نشير أخيراً، الى أنّنا سنقف في الفصل التالي مَع بعض أهم الشخصيات الفكرية التي اختارت لِنفسها موقع الوسط والاعتدال، أو أنها اتهمت بالاعتزال.

ابن النديم والراغب الاصفهاني وَجهان معتزليان شيعيان

يُعدُّ كتاب «الفهرست» لابن النديم (ت: ٣٨٠هـ) واحداً مِن أكثر الكتب العلمية فائدةً وَنفعاً في القرن الرابع. بيدَ أنَّهُ في مقابل هَذهِ القيمة الفائقة لـ«الفهرست» هُناك آراء مُتفاوتة في حقيقة الانتماء المذهبي لابن النديم. فياقوت الحموي يصفه بأنَّهُ «كانَ شيعياً معتزلياً»[٢]. أمّا ابن حجر فينقل عن الذهبي قوله فيه: «أبو الفرج الأخباري الأديب الشيعي المعتزلي». ثم يضيف ابن حجر بأنَّ كتابه يدل على أنّه «رافضي معتزلي» لأنَّهُ سمي أهل السنة «حشوية» وَيطلق على الأشاعرة وَصف «المجبرة» إضافة الى أنَّهُ يعتبر كلّ مَن ليسَ شيعياً مِن «العامة»[٣].

إنَّ القاء نظرة مُتفحصة على كتاب «الفهرست» تكشف لنا بوضوح عن ميوله الشيعية. فهو ـ مثلاً ـ يقرن ذكر الإمام علي أمير المؤمنين والأئمة الآخرين بقوله «عليه السلام» وَهَذهِ علامة تدل على شيعية المؤلف[٤]؛ هَذا إذا ثبت عدم اضافتها مِن النساخ.

---

١. البحث البلاغي في تفسير الكشاف نقلاً عن: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، ص٦٥٢ حيث عدَّ المؤلف أمالي السيد المرتضى مِن آثار المعتزلة!

٢. معجم الأُدباء، ج١٨، ص١٧.

٣. لسان الميزان، ج٥، ص٧٢ ـ ٧٣، وحول هَذهِ الاصطلاحات انظر: الفهرست، ص٢٢٩ ـ ٢٣١.

٤. الفهرست، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.